النظم القرآني (جزالته وتناسقه)

يُقصد بنظم القرآن طريقة تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها، للدلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم.

الفرق بين الأسلوب والنظم: دائرة الأسلوب أوسع وأشمل ولا يدرك الأسلوب بالجملة الواحدة، بينما النظم يمكن إدراكه في الجملة الواحدة بل وحتى في الكلمة الواحدة.

إن المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لا يجد فيها شيئا خارجا عن المألوف المتداول في لغة العرب قديما وحديثا، ولكن عندما نتلو آيات الله نشعر أن للعبارة القرآنية كيانا خاصا بنى عليه تراكيبه ورسم معالم صورة نظمه الفريد على هذا الكيان الفريد.

جاء القرآن نسيج وحده، وصورة ذاته، فلا هو شعر ولا هو نثر ولا هو سجع، وإنما هو قرآن، فالآية في النظم القرآني وهي ليست بين شعر وجملة نثر ومقطع سجع، بل هي قطعة من القرآن لها بداية ونهاية متضمّنة في سورة، ولكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست هذه الفاصلة قافية شعر ولا حرف سجع وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في كلام غيره.

إن النظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب، وقد تأمّلوه آية آبة وعُشرا عُشرا وسورة سورة فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها ولفظة يُنكر شأنها أو يُرى غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدّعي وتتقوّل.

وأقرّوا في قرارة أنفسهم أن هذا ليس من قول البشر وإن أنكروا ذلك بألسنتهم. ومجئ النظم القرآني على هذا الشكل من الإتقان والإحكام إنما يعود – كما يقوا ابن عطية- إلى أن الله تعالى قد أحاط بكل شيئ علما وأحاط بالكلام كله علما إذ ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطة أي لفظة تصلح أن تبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان

والذهول ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا، فلهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.

مزايا النظم القرآني اهتمامه بالجملة القرآنية واختيار المكان المناسب فيها للكلمة المعبّرة: وضع الكلمة في الآية واختيار موقعها والتئامها مع جاراتها له الأثر الكبير في إعطاء هذا الجرس الخاص والإيقاع المؤثر في نفس السامع. مثلا:

كلمة (أغطش) في قوله تعالى:"أغطش ليلها وأخرج ضحاها" النازعات:29. فهي مساوية من حيث الدلالة اللغوية لأظلم، لكن (أغطش) تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ الركود وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولا يفيد هذا المعنى كلمة (أظلم) إذ هي تعبر عن السواد الحالك ليس غير.

أحيانا يكون الاختيار للكلمة في مكان دون أماكن ويُستبدل بها غيرها لسرّ لطيف بالرغم من كون الموضوع واردا، لكن الكلمة المختارة تُعطي مدلولا خاصا لا يوفّيه حقّه إلا استعمال الكلمة القرآنية المختارة. فمثلا جاءت الملائكة بالبشرى لزكريا عليه السلام بيحيى، وأيضا جاءت بالبشرى لمريم بالمسيح عليه السلام، لكن وضع المُبشِّرَيْن مختلف، وتلقّي الخبر منهما يكون له رد فعل يغاير ما في نفس الآخر، واستغراب كل منهما يكون لجانب أشد التصاقا بحاله ووضعه. قال زكريا عليه السلام عندما جاءته البشرى:"قال ربّ أنَّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر"آل عمران:40. وقال مريم عليها السلام عندما جاءتها البشرى:"قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر" آل عمران:47. ورد في كلام زكريا لفظ الغلام وهو الموافق والمطابق لحاله لأنه رجل تزوج ومن شأن المتزوجين كما هي العادة أن يولد لهم، ولكن الغريب في الأمر والمعجزة أن يولد له في هذه السن المتأخرة من حياته وامرأته عاقر فكانت الكلمة التي تؤدي الغرض ووجه الاستغراب هي كلمة (غلام).

أما مريم عليها السلام فالتعجب في جانب آخر إذ إنها عذراء ولم يمسسها بشر ولم تك بغيا، فالغرابة والمعجزة التي تؤدي المعنى بدقة وتوضح وجه الاستغراب لها هي كلمة (ولد). فسبحان الذي الذي أحاط علمه بسر اللغة ومكنوناتها "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير".